الحمد لله ذي العِـزِّ المنيعِ ، والسلطـانِ القاهرِ الرَّفـيعِ ، وأشهدُ ألا إله إلا الله وحدهُ لا شريكَ لهُ شهـادة من أيقنَ أنَّ المتوكِّل عليه المستعصمَ به لا يخيبُ ولا يضيع ، وأشهدُ أنَّ رحمتهُ للعالمين مُحمَّـداً عبـدهُ ورسـولهُ المصطفى الشفيعُ الذي بُعثَ بمكارم الأخلاقِ فأتمَّـها بكلِّ معنى بديعٍ ، صلواتُ الله وسلامهُ وبركاته عليه وعلى آل بيته وصحابته والتابعينَ بإحسانٍ صلاةً دائمةً في كل غدوٍّ وروَاح ، سريانها أبداً ، وطيبُ نـسيمها يُقـصَى العبيرُ به ويُنسَى العنبرُ.

أمَّا بعدُ عباد الله: فأوصيكم ونفسي بتقوى الله فإنَّ تقواهُ مِفْتَاحَ السَدَاد وَ ذَخِيرَةَ المَعَاد، وَ هي عِتْقٌ مِنْ كُلِّ مَلَكَةٍ وَ نَجَاةٌ مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ ، بِهَا يَنْجَحُ اَلطَّالِبُ وَ يأمَنُ اَلْهَارِبُ ، وَ تُنَالُ اَلرَّغَائِبُ.

عباد الله: إنَّ مما يجتمعُ على طلبه العُقلاءُ كونَ صورتهم في لامعةِ العيونِ حسنةً لا يـشوبها مـا يوجـبُ الـضعةَ والازدراءَ ، ولذا فإنَّ الحُكماءَ كانوا يستدلّون على رجاحة عقل الرّجل بتجنّبه ما يكسبه عارا، ويورثـه سـوء السّمعة ، وطلبُ السُّمعةِ الحسنةِ على الوجهِ الذي يحبهُ اللهُ مقصدٌ شرعيٌّ ومطلبٌ نبويٌّ وذخرٌ أخرويٌّ ،سعى إليه إبراهيمُ أبو الأنبياء وطلبهُ من ربه فقال (وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ) وهذه الآيةُ المُحكَمةُ تأصيلٌ شرعيٌّ لاستحبابِ اكتساب ما يورث الذكر الجميلَ والسُّمعةَ الطيِّـبةَ بعيداً عن الرياءِ وصرفِ العبادةِ للناسِ والمسارعةِ في أهوائهم وإرضائهم بسخطِ الله ، ولا طريقَ إلى حُـسنِ السمعةِ في الأرضِ بين الناسِ والمعارفِ أو في الـسماءِ عند الملأ الأعلى إلا بلزومِ طاعةِ الله تعالى واجتنابِ معاصيه ومحارمهِ حتى وإن اشمئزت منـك قلـوبُ الـذين لا يحسنون ، والقرآنُ الكريمُ يثبتُ لنا أنَّ السمعةَ الحسنةَ مقترنةٌ بالطاعة لله تعالى فموسى عليه السلامُ امتنَّ الله عليه فقال (وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي) وفتحَ الطريقَ لكلِّ راغبٍ في هذه المنزلة فقال لكل سامعٍ عاقلٍ (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا) قال القرطبي : أي حبا في قلوب عباده وثناء حسنا، هـذا علـى الأرضِ وفيما بين البشر أمَّا سُمعةُ السَّـماءِ فهي أرفعُ للعبدِ وأنفعُ ، ذلكم أنَّ السُّـنةَ ثبتت بأنَّ العبدَ الـصالحَ المطيعَ يحبهُ الله فينادي جبريل ويُقولَ له (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحْبِبْهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ) ولك أن تتصوَّر هذه السماءَ التي ما فيها موضعُ أربعِ أصـابعٍ إلا وفيه ملكٌ ، كيف حالك لو أحبك كل هؤلاءِ الكرامُ البررة الذين لا يعصون الله ، وكيف لو استغفروا لك مـن ذنوبك فأعظم بذلك من منزلةٍ وجاهٍ ، ولكنَّ أكثر الناسِ لا يعلمون.

عباد الله: المرءُ مسؤولٌ عن سمعةِ دينهِ ونفسهِ وأسرتهِ ومجتمعهِ وأمَّـتهِ ، والمسؤوليةُ عن سمعةِ الدينِ باتت أمراً هيناً في عقولِ ضعافِ العقولِ من أفرادِ هذه الأمةِ المحمديَّـةِ ، الذين أصبحَ واحدُهم يعكسُ صـورةً شـوهاءَ عـن الإسلامِ والمسلمين يبوء بإثمها وإثمِ تبعتها من الصدِّ عن سبيل الله كل ذلك من أجلِ لذةٍ فانيةٍ يطيعُ بهـا شـيطانهُ وأمَّارتهُ بالسوءِ ، وفي كتاب الله تعالى يجدُ القارئُ العاقلُ أنَّ الله تعالى كفَّ يدَ رسولِ الله وأيدي صحابتهِ عن أهل مكةَ وبيتهُ الحرامُ تدنسهُ الأصنامُ ويعلنُ فيه الشركُ ويُستحلُّ الحرامُ وينادى فيه باسم اللات والعزى وهبلٍ ومناة ، مع قدرة الصحابة على تطهيره واستئصال شأفة الشرك ، ولكنَّ الله بقدرته منعهم ذلك لـئلاَّ تتـشوَّهَ صـورةُ الإسلامِ لأنَّ في مكةَ رجالاً ونساءً أسلموا ولم يعلم بهمُ المسلمونَ ، فلوا دخلوا بسيوفهم مقاتلينَ لقتلـوا أولئـك

البررةَ فلحقتهم بذلك المعرَّةُ وشاهتِ السمعةُ وعيَّرهمُ المشركون بأنَّهم قتلوا أهل دينهم ، مع أنَّهم لو فعلوا ذلك لما حاسبهم الله لأنَّهم لا يعلمون ، لكنَّ الله أبى أن تصيبهم المعرَّةُ بقتل أولئك فتتشوه صورةُ الدينِ ، وأكرم المسلمين بالفتح من غير أن يراقَ دمٌ بغير حق ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثَّلُ هذا الحفاظَ على سمعة الدينِ منهجَ حياةٍ ، فقد أمسكَ عن قتل المنافقين مع علمه بأعيان بعضهم خشيةَ أن تتشوَّه صورةُ الدينِ فقال لعمر بن الخطاب وهو يستأذنهُ في الفتك بكبير أولئك الزنادقة (دَعْهُ لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ) ،ومن بعدُ يمتنعُ عبد الله بنُ حذافة السهمي رضي الله عنهُ وقد عرضَ عليه ملك الروم شطر ملكه والزواج بابنته وهدَّدهُ بالقتلِ ومنعهُ الطعام ليلجئه لأكل الخنزير فيأبى عن كل هذه المغرياتِ ويثبتُ قُدَّام الضغوطاتِ فيأبى أكل الخنزير وهو حلالٌ لهُ لمكان الضرورةِ حرصاً على سمعة نفسه ودينه وقال لهُ "أما إنه قد حَلَّ لي، ولكن لم أكن لأشمتك فيّ!" ولنا أن نسأل أنفسنا بعد ذلك عن إمساك النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته عن ضرورات الشرعِ الواجبة ، ورخصهِ المباحةِ دفعاً لما يعقبها من مفاسد عُظمى صيانةً لسمعة الإسلامِ والمسلمين ، وبين ما نمارسهُ من أفعالٍ محرمةٍ شرعاً سواءً على المستوى الشخصي والمجتمعي عند السفر للخارج أو مزاملة ومعاملة غير المسلمين ، فتكونُ سلوكياتنا وأعمالنا تشويها وصداً عن الإسلامِ وفتكاً بأهله وشماتةً لأعدائه بالمسلمين ، وهذه المسؤولية عن صورة الدين مما يجبُ أن يترسَّخَ في أذهان الناشئة والأولياءَ وتتضافر لهُ الجُهود وتُفنى فيه الجهود ويُسترضى بهِ المعبود ، وهي جزءٌ من الأمانةِ التي استرعى الله عليها كلَّ راعٍ.

عباد الله: إنَّ السُّمعةَ الحسنةَ شرفٌ ، ولا يُنالُ الشرفُ بالخَبَثِ والسَّرف ، فليس من الجائزِ في العقلِ أو الشرعِ أن يسعى الإنسانُ لحُسنِ السُّمعةِ بالطُّرقِ الملتويةِ من رياءٍ وتزويرٍ وغِشٍّ وتدليسٍ ، فالكذبُ عند السؤالِ عن الخاطبِ محرمٌ شرعاً وصاحبه خائنٌ لأنَّهُ أشار على أخيه بغير رشدٍ وارتضى له ما لا يرتضيه لمحارمه من أجل تحسين سمعة الخاطب بالزور قال صلى الله عليه وسلم (وَمَنِ اسْتَشَارَهُ أَخُوهُ الْمُسْلِمُ ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِغَيْرِ رُشْدٍ فَقَدْ خَانَهُ) ، وادِّعاءُ الفردِ أو الشَّركة أو الدائرةِ أو الأسرةِ أو المجتمعِ ما ليس فيهم من المحامد والمفاخر والمآثر وتجنيدُ الشعراء وضعافِ النفوسِ من المادحين بالإفكِ سعياً لتحسينِ السُّمعة بالباطلِ كذبٌ وتدليس قال صلى الله عليه وسلم (الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلاَبِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ) والمعنى أنَّ المُدَّعي المستكثر المفتخر بما ليس فيه ولم يهبه الله له من الصفات والمحامد كمن يلبسُ ثوبي زورٍ ، وتثنيةُ النبي صلى الله عليه وسلم للثوبين مناسبةٌ لما يفعلهُ أولئك من الكذب على أنفسهم وعلى الناسِ ، فليتق اللهَ المتشبعونَ الذين يُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا وليعلموا أنَّ مَنْ أَسَرَّ سَرِيرَةً ، أَلْبَسَهُ اللهُ رِدَاءَهَا وأظهَرَ باطلَهُ ؛ فقَلَّ مقدارُهُ ، وذَلَّ في نفسه ؛ وحصَلَ على نقيضِ قصده من الكذب والتدليس ، قال صلى الله عليه وسلم: "من ادَّعَى دَعْوى كاذبة لِيتَكَثَّر بها لم يَزِدْه الله إلا قِلَّة".

عباد الله: إنَّ من أهَمِّ ما تترتَّبُ عليهِ سمعة المرءِ جُلاسُهُ وأخلاءُهُ ، والأصدقاءُ كما يقولُ الحُكماءُ نفس واحدة في أبدان متفرقةٍ ، والصاحبُ عنوانٌ عليك شئتَ أم أبيتَ فاحفظ نفسك وسمعتكَ من مصاحبة السفيه والبطَّال الذي لا يُرجى من مصاحبته خيرٌ ، ولو لم يكن في صديق السوء إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم شبهه بنافخ الكير الذي يحرقُ ثيابك أو تجد منه الريح الخبيثة لكفى ، وهذه الريحُ الخبيثةُ في الحديثِ تشملُ السمعة عند الناسِ فهي رائحةُ أصحابكَ التي يشتمونها منك.

إنَّ السمعةَ السيئة بالنسبة لأصحاب الأحاسيس والإدراك بلاءٌ متلاطمٌ وعذابٌ متعاظم فهي شماتة الأعداء ، وقبور الأحياء ، وأمُّ البلاءِ ، وعيوبُ الرجالِ على كثرتها تهونُ وتصغُرُ وتنمحي أمامَ الكذبِ ، بل ليس في المخازي على تعدّد دركاتها ومهاويها ذنبٌ ولا عيبٌ أقبحُ منهُ ، ولا شيء أضرُّ على السمعة منهُ ، ولذلك حاول المشركون عبثاً أن يلصقوهُ برسول الله صلى الله عليه وسلم فخيبهم الله ، وبالكذب يسعى الحُسَّادُ والمغرضون لتشويه سمعة الأخيار والشرفاء ليهزوا ثقة الناس بهم (وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) وسنةُ الله في الصالحين أنَّهُ لا يريدُ بهم الأراذلُ سوءً إلا عاملهم الله بنقيضِ قصدهم ورفع مكانة الأخيار ، والشاهدُ إبراهيمُ عليه السلامُ (فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ) فأهل الكيد والخديعة وتشويه الأبرياء وإن انتصروا في ظاهر الأمر أو أوله فمآلهم إلى سفالٍ.

عباد الله: الرجلُ الكاذبُ ليس كفؤاً لتحمُّل مسؤولية حبةٍ من خردلٍ ولا يُؤمنُ منهُ أيُّ سوءٍ فالكذبُ أبو الخبائثِ وإليه يؤول الشركُ والحسدُ والحنثُ والبهتانُ والسحرُ والرشوةُ وغيرُ ذلك من أبواب العار ، قال الراغبُ رحمه الله « والاتصاف بالكذب انسلاخٌ من الإنسانية لخصوصية الإنسان بالنطق ، ومن عُرف بالكذب لم يُعتمد نطقه ، وإذا لم يُعتمد ولم ينفع صار هو والبهيمة سواءً بل يكون شرا من البهيمة فإنها وإن لم تنفع بلسانها لا تضر والكاذب يضر ولا ينفع » فأي رتبةٍ أحطُّ من الكذبِ بعد ذلك أيها المسلمون ، ولذلك لا تُقبلُ له شهادةٌ.

عباد الله: إنَّ كلَّ واحدٍ منَّا محتاجٌ إلى السمعة الحسنةِ المكتَسَبة بالطاعة فهي أولُ البُشرى للمؤمنِ بعد قبضِ الروحِ ، كما أنَّ السمعة السيئةَ هي أولُ عذابِ الفجرة بعد انتزاع أرواحهم ذلكم أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : إِنَّ الْمَيِّتَ تَحْضُرُهُ الْمَلاَئِكَةُ ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلَ الصَّالِحَ يُعْرَجُ بروحهِ إِلَى السَّمَاءِ ، فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا ، فَيُقَالُ : مَنْ هَذَا ؟ فَيُقَالُ : فُلاَنٌ ، فَيُقَالُ : مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطِّيبِ ، ادْخُلِي حَمِيدَةً ، وَأَبْشِرِي بِرَوحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ ، فَيُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ، وَإِذَا كَانَ الرَّجُلَ السُّوءَ ، يُعْرَجُ بروحه إِلَى السَّمَاءِ ، فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا ، فَيُقَالُ : مَنْ هَذَا ؟ فَيُقَالُ : فُلاَنٌ ، فَيُقَالُ : لاَ مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الْخَبِيثَةِ ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ ، اخْرُجِي ذَمِيمَةً ، فَلَنْ تُفْتَحَ لَكِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ.

وهذا الحمدُ والترحيبُ من الملائكةِ لا يتحصَّلُ بغير الطاعة وكبح جماحِ الشهواتِ ، ولا ينتزعُ بالمال أو السلطان أو الوراثة والأنساب، فاختر لنفسك أنفعَ السمعتين لكَ عند الملائكة حين يأذن الله لهم بقبضِ روحكَ ، واسعَ إلى تحسينِ سمعتكَ في هذا اليوم المباركِ عند رسول الله صلى الله عليه وسلمَ بكثرة الصلاة والسَّلامِ عليهِ قال عليه الصلاةُ والسلامُ "فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلاَةِ فِيهِ فَإِنَّ صَلاَتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ" قال بعضُ أهل العلم: أَيْ تُعْرَضُ عَلَيَّ فِي كُلِّ يَوْم جُمْعَة فَمَنْ كَانَ أَكْثَركمْ عَلَيَّ صَلَاة كَانَ أَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَنْزِلَةً . وَإِنَّمَا خَصَّ يَوْم الْجُمُعَة لِأَنَّ يَوْمَ الْجُمُعَة سَيِّدُ الْأَيَّام وَالْمُصْطَفَى سَيِّدُ الْأَنَام ، فَلِلصَّلَاةِ عَلَيْهِ فِيهِ مَزِيَّةٌ لَيْسَتْ لِغَيْرِهِ ، فطوبى لمن عُرضت صلاتهُ على النبي صلى الله عليه وسلم فكانَ من المكثرينَ.